القيم الإنسانية المشتركة تنظم مسألة الحوار

الشيخ / محمد علي التسخيري
الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب
بين المذاهب الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه الكرام الميامين، أما بعد:

فقد لانجد أنفسنا بحاجة إلى إعطاء تعريف لهذه القيم، ولكن شيئاً من التوضيح ضروري في هذا المجال.

فإن المراد بالقيم ليس تلك التي يؤدي إليها التعبير اللفظي (أي الأشياء التي يقيمها الإنسان ويحترمها، بل المراد منها معنى أدق وهو (الأمور التي ينطلق الإنسان فيها من ذاته أو من ركائز عقيدته؛ ليعطيها قيماً معنوية مطلقة تؤثر خلالها على كل مسيرته الحياتية).

وبهذا يمكن القول إن دور الإيمان، أو عدم الإيمان بهذه القيم كبير جداً في الحياة الحضارية للإنسان. بل يمكن قياس مدى تحضر أي مجتمع بمدى علو قيمه المطلقة التي يؤمن بها.

فإذا فقد أي مجتمع الإيمان بقيم مطلقة فهو لا محالة سوف يفقد صفته الإنسانية، لأن هذه الصفة - كما سنبين ذلك - تلازم هذا الإيمان، ولم يعد قادراً على التعامل مع الواقع، ولا الابداع في تطويره، لأنه لا يمتلك أية صورة عن منطلقه، ولا عن مصيره ولا عن معالم ثابتة في مسيرته بين (المبتدأ) و(المنتهى)، وبالتالي لايملك أية روابط تنظم حركته وتربطها بالكون والوجود، وإنما هو متحرك ضائع في عشوائية وهباء.

و من هنا نجده يطلق لذاتيته العنان، فيقتل ويسلب ويفجر دونما أي رادع. فعدم الإيمان بالمطلق من أكبر علل الدمار والإجرام والضياع.

كما أن الإيمان بـ(القيم الوهمية، أو النسبية) لا يقل تدميراً لحياة الإنسان عن حالة عدم الإيمان بأية قيم. ذلك أن هذا الإيمان- كما يعبر أستاذنا الإمام الشهيد الصدر - (يصبح سبباً في تطويق حركة الإنسان وتجميد قدرته على التطور والابداع، وإقعاد الإنسان عن دوره الطبيعي المفتوح في المسيرة ﴿لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولاً﴾ (الإسراء: ٢٢).

وهذه حقيقة صادقة على كل الآلهة التي صنعها الإنسان عبر التاريخ، سواء ما صنعه الإنسان في المرحلة الوثنية من العبادة، أو في المراحل التالية، فمن القبيلة إلى العلم نجد سلسلة من الآلهة التي أعاقت الإنسان بتأليهها والتعامل معها مطلقاً عن التقدم الصالح)[1].

بعد هذا نقول: كيفما عرفنا الحضارة فإنه يجب أن نقر بأن الصفة الإنسانية- بمعنى: امتلاك الاتجاه العام لخدمة الإنسان وتطوير إمكاناته الذاتية والعرضية - هي أهم مقوماتها بلا ريب.

ولا يمكن أن يتسم أي مذهب أو تخطيط أو حتى مجرد سلوك بالسمة الحضارية إلا إذا اتسم بالصفة الإنسانية.

والصفة الإنسانية، عبر ادراكات الوجدان ، وبلا حاجة إلى استدلال، تلازم الإيمان بمجموعة من القيم المطلقة والمشتركة ، فلا يمكن أن نفترض النسبية في كل شيء ، ثم نفترض وجود خصائص إنسانية؛ فإن ذلك يستبطن نوعاً من التناقض مفاده: الاعتراف - من جهة - بأن الإنسان له هويته المتفردة جزئياً - إن لم يكن تفرده كلياً - ورفض أي تمايز إنساني أو قيمة ثابتة فيه من جهة اخرى.

(١) الفتاوى الواضحة ص ٧٥٤ - طبعة قم ايران .

فما هي هذه السمة الثابتة المميزة؟

إن الجواب الوجداني (ونؤكد على وجدانيته لأن ذلك يغنينا عن الاستدلال) هو: الفطرة الإنسانية.

والمقصود بالفطرة هو أن الإنسان مخلوق إلهي أودعت الحكمة الإلهية في وجوده وطينته الأصلية مجموعة من القضايا البديهية والقدرات العقلية والميول والغرائز التي تضمن له سيراً طبيعياً نحو تكامله المرسوم له.

وكل الحضارات والمذاهب والأديان إنّما جاءت لتثير له دفائن العقول - كما يعبر الإمام علي (ع) - وتهيئ الجو المناسب لبروز هذه الطاقات الكامنة على سطح حياته؛ فتهديه سبيلاً يختلف كل الاختلاف عن السلوك الذي تسلكه الحيوانات العجماء التي لا تتمتع بما يتمتع به من طاقات.

أما القضايا البديهية فهي التي تمنحه القدرة على المعرفة: معرفة نفسه ومعرفة الكون والواقع، وفلسفة الوجود والعلاقات القائمة بين الأشياء وتلك من قبيل: الإيمان بمبدأ العلية، والإيمان بمبدأ استحالة التناقض (الجمع بين النقيضين، وارتفاع النقيضين) و(بعض القضايا الأخرى) فهذه قضايا مغروزة في القناعة والوجدان الإنساني لا يحتاج للاستدلال عليها؛ وإلا دخل في طريق مسدود؛ لأنّ الاستدلال نفسه يتوقف عليها كما هو واضح.

أما القدرات العقلية فهي نفس قدرة النفس الإنسانية على التأمل والتفكير وتجريد القضايا من ملابساتها، والصعود من مرحلة الجزئيات إلى مرحلة الكليات، والقيام بقياس الأشياء للوصول إلى تصورات جديدة، والتخطيط الذهني لمراحل غير موجودة على صعيد الواقع القائم. إن هذه القدرة الذهنية هي من مختصات الإنسان، وهي سرّ مسيرته التكاملية وإبداعه ونموّه.

وأما الميول الغريزية فهي التي تقوده نحو كماله وتدفعه للاستفادة من طاقاته في هذا المجال:

ومن هذه الميول: ميله نحو الكمال، والسير نحو الكمال المطلق، ومحاولة سد جوانب العجز في وجوده، والركون إلى هذا المطلق القادر، وأداء حقه وشكر نعمه، والقيام بحق طاعته - فهذه أمور يجدها الإنسان مغروزة في الطينة الإنسانية وإن اختلفت تجلياتها وتعددت أساليبها وربما غطت الشبهات على هذه الميول وكبتتها.

ومنها أيضاً غريزة حب الذات والعمل على تحقيق طموحاتها فهي من الغرائز الأصلية في الإنسان والتي لا يمكن تجاوزها والقضاء عليها، كما تصورت الماركسية يوماً ما أنها ظاهرة فوقية يمكن حذفها من الوجود الإنساني من خلال تحريم الملكية.

ومنها التذوق الفني: والابتهاج لعناصر الجمال التي يزخر بها هذا الكون.

وعلى هذا فالذي يبدو لنا بكل وضوح أيضاً أن مسألة الإيمان بنظرية الفطرة الإنسانية يفسح المجال للحديث عن جملة مفاهيم من قبيل مفاهيم (الحقوق) و(التكاليف) و(العدالة) و(الإنسانية) و(الأخلاق) و(الذوق الفني العام) و(القيم المشتركة) و(الحضارة) و(الحوار) و(الدين) و(المعرفة) و(التصديق) و(المنطق) بل وحتى (البرهان والاستدلال) و(العلم) لأنهما يعتمدان على عنصر ثابت بدونه لا تسلم لهما حدود ومعالم.

وبدون الإيمان بهذه النظرية يبقى الإنسان حبيس نفسه، ولا يتصل إلا بصوره الذهنية - كما يعبر جورج باركلي - بل يمكن القول بأنه لا يستطيع الإيمان بذاته هو وهذا منتهى الخواء.

وبدونها فكل حديث عما مضى إنما هو حديث بلا معنى كما نتصور. وهذه حقيقة كبرى تصطدم بها الاتجاهات المادية بقوة، ومن هنا جاءت النصوص الإسلامية لتؤكد على (الفطرة) وأن الدين في الحقيقة ينسجم مع (الفطرة) لأنها واقع أصيل والدين مشروع واقعي لاصلاح الإنسان يقول تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (الروم:٣٠).

وهذه الآية الكريمة تقرر كما يقول الإمام الشهيد الصدر (قدس سره) في كتابه «اقتصادنا» (ص ٣١٢) الحقائق التالية:

أولاً: أن الدين (بكل مافيه من حقوق وتكاليف ومنظورات للعدالة) هو من شؤون الفطرة الإنسانية التي فطر الناس عليها جميعاً لا تبديل لخلق الله.

ثانياً: أن هذا الدين الذي فطرت الإنسانية عليه ليس هو إلا الدين الحنيف الخالص أما أديان الشرك والإيمان بالآلهة الوهمية النسبية، فهي لا يمكن أن تحلّ المشاكل الإنسانية.

يقول سيدنا يوسف لصاحب السجن: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ (يوسف:٤٠).

وثالثاً: أن الدين الحنيف الذي فطرت عليه الإنسانية يتميز بكونه ديناً قيماً على الحياة قادراً على التحكم فيها وصياغتها في إطاره العام.

ذلك أن المسألة الاجتماعية المهمة في تاريخ الإنسان هي التعارض الذي ينشأ بين المصالح الفردية (وهي تؤدي لأن يتصور الإنسان لنفسه حقوقاً يسعى للحصول عليها بمقتضى حب ذاته و(المصالح الاجتماعية) التي

يطرحها النظام الاجتماعي الذي يعيشه ويفرض عليه (تكاليف) تجاهها باسم (العدالة)، وهذا التعارض بين المصالح الفردية والاجتماعية لم يستطع العلم وحده أن يحلّه، فإن علم الإنسان لن يقف مطلقاً أمام ترجيح مصالحه الشخصية.

ولم تستطع المادية التاريخية من خلال قوانينها التاريخية أن تقدم الحلّ، أيضاً فيبقى إذاً للدين الحل النهائي لهذا التعارض مع تحقيق العدالة، وذلك من خلال ربطه بين المصالح الذاتية وسبل الخير، إذ يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (غافر: ٤٠)، ويقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ (فصلت: ٤٦).

وهكذا تتلاحم المصلحة الفردية والمصلحة الاجتماعية و(الحقوق) و(التكاليف) تلاحماً رائعاً ينفي التعارض.

وهنا يؤكد المرحوم الشهيد الصدر (قدس سره): «فللفطرة الإنسانية إذن جانبان، فهي من ناحية تملي على الإنسان دوافعه الذاتية التي تنبع منها المشكلة الاجتماعية الكبرى في حياة الإنسان (مشكلة التناقض بين تلك الدوافع والمصالح الحقيقية للمجتمع الإنساني) وهي من ناحية أخرى تزود الإنسان بإمكانية حل المشكلة عن طريق الميل الطبيعي إلى التديّن»(١).

ونضيف إلى ماسبق أن الإنسان بفطرته يطمح إلى (التغيير) أي تغيير الواقع الذي يعيشه إلى الأفضل باستمرار. فهذا من نوازعه الفطرية التي قد تخمد لديه أحياناً، ولكنها لن تنمحي من صفحة الذات، وهو مجهز

(١) اقتصادنا، ص ٣١٠ - ٣١٢، طبعة مشهد.

بإمكانات التعالي على الواقع والخلاص من ضغوطه وتصور الحالة الأفضل تصوراً إجمالياً - وربما كان تفصيلياً-، ثم العمل على تغيير الواقع إلى الصورة المفروضة. وهي حالة لا يتمتع بها أي مخلوق آخر.

ومن هنا تنشأ عملية التغيير وتطبع الحياة الإنسانية بطابعها الحضاري دون غيره من المخلوقات.

وهكذا يمكن أن نقرر أن العملية الحضارية تحتاج في كل مراحلها إلى الإيمان بالقيم الثابتة، وعلى النحو التالي:

أولاً : في مرحلة إيمان الإنسان بذاته.

ثانياً: في مرحلة العبور إلى خارج الذات.

ثالثاً: في مرحلة صياغة الفكر ووضع التصور عن الحاضر والمستقبل انطلاقاً نحو التغيير إلى الأفضل .

رابعاً: في مرحلة نقل الفكرة إلى الآخرين واستلام أفكارهم .

خامساً: في مرحلة السبر والتقسيم والتمحيص والتداول.

سادساً: في مرحلة الاستنتاج والاقتناع .

سابعاً: في مرحلة التخطيط للتغيير.

وأخيراً : في مرحلة تنفيذ التغيير وتحقيقه.

وخلاصة الأمر: أن هناك تلازماً تاماً بين المسيرة الحضارية الإنسانية التغييرية وعملية الحوار والإيمان بالقيم المشتركة والمطلقة.

القيم المشتركة مطلقة واقتضائية:

إننا وبالتحليل النفسي الوجداني الذي اعتمدناه في مسيرتنا هذه ندرك

وجود منظومتين من القيم إحداهما مطلقة التأثير لا تحدها حدود أو ظروف معينة، والأخرى هي قيم الحالة الطبيعية أو (قيم الأصل) ؛ مما يعني تحولها إلى النقيض أو فقدانها التأثير المطلوب إذا طرأت ظروف أخرى.

ومن أمثلة المجموعة الأولى:

قيمة العدالة فهي مطلوبة مهما كانت الظروف.

وكذلك تقديم الشكر للمنعم المتفضل.

ومن أمثلة المنظومة الثانية:

حفظ الذات، حفظ الكرامة، التعاون، الدفاع عن المستضعفين و السلام والأمن، التغيير إلى الأفضل، الرحمة، الإيثار، الأمانة.

فقد يكون الصدق في بعض الأماكن نتيجة ما يؤول إليه من تبعات ظلماً لا عدالة، وكذلك السلام أحياناً بما يؤدي إليه من جرأة على حرمات الإنسانية. فإذا كانت العدالة قيمة مطلقة فإن السلام قيمة نسبية نعمل على تحقيقه إذا عادت وجهاً من وجوه العدالة، ونرفضه إن كان ظلماً، ولكن التساؤل الأساس هو: ماهي معايير العدالة؟ وكيف نتأكد من تحقيقها.

إن الأديان السماوية كلها تؤكد على معيارين:

الأول: معيار تعبدي نستفيد فيه من علم العالم المطلق، وهو الله تعالى، وهو تعليمات الدين الثابتة، والتي نتأكد من كونها صادرة من الله سبحانه؛ ذلك أننا نتأكد قبل ذلك من علم الله الشامل، ومن لطفه ورحمته بالإنسان المخلوق ومن عدالته وتمتعه بكل صفات الكمال، فهو لا يريد بالإنسان إلا الخير، ولا يخدع الإنسان، وإنما يكشف له كل الواقع ويريد له كل الخير.

الثاني: معيار وجداني يكفي فيه التأمل في الأعماق وقناعاتها، أو فلنعبر

بأنه يكفي فيه الرجوع إلى الفطرة نفسها.

وما يساعدنا في اكتشاف العمق الفطري هو كون هذه القناعة - أيّة قناعة كانت - من ملازمات الطبيعة الإنسانية، ولذلك نجدها متوفرةً لدى كل أبناء الإنسان في مختلف ظروفهم وحالاتهم الفردية والاجتماعية وأزمنتهم وأمكنتهم.

ولكي نتأكد من هذا المعنى نستطيع أن نطرح هذا السؤال على أي إنسان: (هل تعتبر أن السلوك الفلاني سلوك إنسانيا جداً، أم سلوك حيواني؟)

فمثلاً لنركز على (قتل اليتامى والعجزة والمستضعفين للتلهي والتشهي) مثل هذا السلوك يعد سلوكاً وحشياً من قبل أي إنسان بلا ريب، والقرآن الكريم أحياناً يعيد الإنسان إلى تأمله الوجداني وقناعته الفطرية حينما يقول: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ (المائدة: ٥)، ويترك أمر تعيين الطيبات له ، ويقول: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ (الحشر: ١٩) ويترك أمر تعيين الفواحش له أيضاً ويعتبر الخروج عن الحالة الإنسانية (فسقاً) وانحرافاً عن الطبيعة ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الأعراف: ٣٣).

وهكذا ننتهي إلى هذه الحقيقة، وهي: أن الأديان تؤمن بالفطرة الإنسانية، وأن الفطرة تقرر كون العدالة مطلوباً مطلقاً ، وكون السلام مطلوباً إذا شكل مصداقاً من مصاديق العدالة وتجلياً لها، ومن هنا كان التأكيد الدائم على (السلام العادل) تأكيداً إنسانياً صحيحاً.

القيم والمصالح تنظم العلاقة بين أتباع الديانات والثقافات وتبلور النظم الدولية

بعد أن تم عقد اتفاقية (وستفاليا) عام ١٦٤٨ في أوروبا طرح مفهوم

النظام العالمي وكان يقوم على مبدأ (توازن القوى) لمدة ٢٥٠ عاماً، وبعد الحرب العالمية الأولى قام نظام (الأمن الجماعي)، وجاءت الحرب العالمية الثانية فأفرزت نظام القطبين والحرب الباردة بينهما.

ولكن قيام المؤسسات الشمولية في العالم الإسلامي في أواخر الستينات كرابطة العالم الإسلامي ومنظمة المؤتمر الإسلامي، ونجاح الثورة الإسلامية في إيران، وانتشار المطالبة بتطبيق الإسلام في شتى أنحاء العالم الإسلامي، وتنامي الشكوك تجاه نوايا الغرب تجاه العالم الإسلامي، بحيث أوجد صحوة إسلامية كبرى، وما تبع ذلك من هزيمة الاتحاد السوفيتي في أفغانستان وبالتالي انهياره تماماً، كل ذلك دفع بعض الدول العظمى كأميركا لتغيير استراتيجياتها للتخطيط لنظام القطب الواحد واعتبار الإسلام هو العدو الأول.

كما دفع بعض المفكرين ليعيدوا النظر في تحليلاتهم الحضارية وأسلوب التعامل بين الحضارات، ودفع كذلك بعض ذوي النظريات المتطرفة إلى العودة إلى نظريات تقسيم العالم إلى متحضر ومتوحش، وبالتالي تطبيق مبدأ قانون الغابة مع سكانها، وعدم التعامل معهم وفق المبادىء الإنسانية وأنه لا معنى للتعامل معهم وفق المبادئ الإنسانية.

وفي مقابل ذلك طرحت نظريات في الجانب الإسلامي تراوحت بين التناقض الكامل بين الإسلام والغرب، والانسجام بينهما ، ومحاولات التوفيق.

وقد أنجزت أعمال تحقيقية لها قيمتها الدراسية في هذا المجال.

وقد كانت المحاولات تنصب على عناصر مهمة في مجال تبيين سبب ظاهرة الصحوة الإسلامية، ومنها محاولة الكاتبة (هنتر) إرجاعها إلى مايلي:

١ـ مسألة انقسام المجتمعات الإسلامية إلى خطوط ثقافية ثورية أو رجعية

وصراع هذه الخطوط.

٢ـ مسألة سعي الغرب أو الحكومات الموالية له إلى تهميش العنصر الإسلامي والمظاهر الإسلامية.

٣ـ عمل المفكرين الإسلاميين على الاستفادة الجيدة من ظروف الانفتاح الإنساني وحقوق الإنسان لغرض إثارة الحماس في العالم الإسلامي.

وهم بذلك ينقسمون في مجال التعامل الإسلامي الغربي إلى فريقين:

الأول: من يرون أن مجال التصالح بين الغرب والإسلام مغلق، ونفقه مظلم، لأن السر يكمن في أن الإسلام نفسه يرفض الغرب قيمياً ولا يسمح مطلقاً بالتعايش أو ما يسمونه بالانسجام مع الحداثة أو التغريب. وتسميهم الكاتبة شيرين هانتر بالمستشرقين الجدد(١)، أما نحن فيمكن أن نسميهم بفلاسفة (اليأس الحضاري).

ومن هؤلاء مثلاً مارتن كرامر الذي ينعى على مخالفيه تساهلهم في الأمر، ويسميهم (الاعتذاريين)، ويرى أن عملية الإحياء الإسلامي ستقضي على نفسها في نهاية القرن كما يرى أموس برلموتر في مجال العلاقة بين الإسلام والديمقراطية (أن المسألة ليست الديمقراطية، بل الطبيعة الأصلية للاسلام(٢)).

ولا نعدم في عالمنا الإسلامي من يصور العلاقة في ثنائية متنافرة تنافر الإسلام والجاهلية.

(١) مستقبل الإسلام والغرب صدام حضارات أم تعايش سلمي: ص ٩٦ .
(٢) الواشنطن بوست، ١٩ يناير ١٩٩٢ .

الثاني: يرى إمكان التعايش نتيجة حيوية الإسلام وقدرة التجربة الإسلامية على التغير والتكيف، كما يرى أن الانبعاث الإسلامي ناتج لا من قدرات الإسلام الذاتية، بل من الحرمان الاقتصادي والسياسي والاستلاب الاجتماعي أيضاً، وهذا ما يؤكد عليه فرانسوا بورغات كما يرى أيضاً بعداً ثقافياً لهذه الحركة كجهد للاستقلال الثقافي ويقول: (نحن نشهد الوجه الثالث لعملية إزالة الاستعمار. فالوجه الأول كان سياسياً ـ كحركات الاستقلال، والثاني اقتصادياً كتأميم قناة السويس في مصر والنفط في الجزائر أما الوجه الأخير فهو ثقافي[1]).

ويدعو هؤلاء إلى سياسة التعامل بإيجابية وتسميهم الكاتبة شيرين هانتر بالعالم ثالثيين[2]، وأسميهم بـ (مفكري التوافق)، وهناك كثيرون من المفكرين الإسلاميين ينحون هذا المنحى.

وإذا كنت أنعى على الأولين بعدهم عن فهم طبيعة الإسلام المرنة، وفهم حقيقة الصراع الطويل بين العالم الإسلامي والعالم الغربي بكل ما فيه من مد وجزر، فإني أنكر على اتباع الاتجاه التوافقي الغربي اعتبارهم قيم الحضارة الغربية هي الأصل، ومدى قدرة الإسلام على الانسجام معها هو المعيار في حيوية الإسلام.

فهذا برايان في سلسلة مقالاته عن الموضوع في (الايكونوميست) اللندنية عام١٩٩٤ يبدو توافقياً داعياً الغرب إلى شيء من الانحياز إلى المعنويات

(١) Paris: Editions La Decouverte 1995), 107.

(٢) مصدر سابق ص ٩٨، من الترجمة العربية.

وداعياً العالم الإسلامي إلى الإيمان بكل القيم الغربية معتبراً أن العالم الإسلامي يمر اليوم في قرنه الخامس عشر الهجري بنفس الحالة التي كان الغرب يمر بها في قرنه الخامس عشر الميلادي، وكما كان الإسلام العامل الخارجي المؤثر آنذاك لحدوث النهضة، فيجب أن يكون الغرب هو العامل الخارجي المؤثر في نهضة العالم الإسلامي اليوم.

وإذا كان هانتگتن وفوكوياما و برناردلويس يختلفون في تحليلاتهم للصراع من حيث ماهو الواقع والأسلوب الأمثل للمقابلة، فإنهم كغيرهم يتفقون على الهدف وهو انتصار الحضارة الغربية في النهاية، واعتبارها القمة في التمدن الإنساني.

وإذا أراد المفكر الغربي أن يلبس لبوس الواقعية؛ فإنه يحاول أن يدعو الغرب إلى شيء من الأخلاقية إلى جانب دعوته العالم الإسلامي للتنازل عن قيمه الاصيلة كلها تقريباً.

وهكذا نجد الكاتبة شيرين هانتر الغربية تدعو الغرب إلى شيء من التدين، وتدعو العالم الإسلامي إلى العلمانية ليتم حل المشكلة(١).

وكأن الأمر يدور بين حالتين فإما أن يتنازل الإسلام عن قيمه ليرضى الطرفان: اليائسون والتوافقيون، أو يوصف بأنه العدو الحضاري على طول المدى للغرب.

ولنصور هذه الثنائية الحدية بشكل آخر، فإما أن يكون معيار الصراع القيم فلا تلاقي في البين، أو يكون المصلحة فهناك آفاق للتعاون والتعايش.

---

(١) مصدر سابق.

ولكي أنتقل بالبحث من التعامل الإسلامي الغربي إلى التعامل الإسلامي المسيحي واليهودي في حركة الواقع اليوم ـ وهناك من سحب الواقع الغربي على كل الساحة المسيحية ـ أبدي الملاحظتين التاليتين:

الملاحظة الأولى:

إن هناك خلطاً واضحاً أحياناً بين الإسلام يحكم كونه منظومة قيم، والمسلمين باعتبارهم أمة تعتنق الإسلام، فالواقع التطبيقي للإسلام ولمسيرة الأمة لا يعكس في ظروف ليست قليلة حقيقة القيم الإسلامية في حركتها العملية، فلا يمكن مثلاً اعتبار تصرف حاكم معين مثلاً منطلقاً من الثقافة الإسلامية حتماً، خصوصاً وأن الحكم الإسلامي ابتلي بفترات استبداد وبُعد عن القيم يتبرأ منها المسلمون أنفسهم، كما أن القيم الغربية والسلوك الغربي لا يعني بالضرورة رضاً مسيحياً عنه؛ بل إن محاولات التخلص حتى من النَفَس المسيحي معروفة وهكذا قُل عن التصرف السياسي الصهيوني، فهو لا يعبر بالضرورة عن التعاليم اليهودية الأصيلة؛ وإلا كان علينا أن نبرر كل الفجائع التي ترتكبها إسرائيل أموراً يبررها هذا الدين، وهو ما يخالف الواقع.

إلا أننا لا نجانب الحقيقة إذا قلنا إن روح القيم الإسلامية هي التي تحرك التيار العام في العالم الإسلامي؛ حتى لو افترضناه علمانياً، كما أن الروح المسيحية تفعل فعلها وتترك تأثيرها الجذري على مجمل الحياة الغربية، وهكذا تترك اليهودية بصماتها بقوة في التصرفات الإسرائيلية .

ومن هنا نجد الفرق واضحاً في مجال النظرة أو في مجال التعايش في الغرب عنهما في العالم الإسلامي حتى أن المرء لا يحس بكثير من الفوارق بين المسلم والأرمني الإيراني أو القبطي والمسلم المصري.

وبالتالي نقول: إن الحوار الإسلامي المسيحي اليهودي له تأثيره القوي على العلاقة بين الحضارات.

الملاحظة الثانية:

أننا لا نجد أنفسنا محصورين في الزاوية الضيقة، فإما أن نترك الساحة للقيم المتناقضة فالصدام والصراع، أو نلجأ إلى المصالحة، فتُسحق القيم ويتم التعايش ـ والمفروض أن التنازل عن القيم يعني الاغتراب عن الذات ـ .

إن هذه المعادلة باطلة على صعيد العلاقة الإسلامية الغربية وأكثر بطلاناً على صعيد العلاقة الإسلامية المسيحية- اليهودية.

فهناك الكثير الكثير من نقاط الاشتراك بين الإسلام والغرب يمكنهما أن يتفاهما عليها دون التنازل عن القيم. من أمثال (حقوق الإنسان، والديمقراطية، والسلام، والحرب ضد الارهاب، ومقاومة العنصرية والنازية والفاشية ودعم العدالة ورفض الاستبداد ونشر الحرية وغير ذلك).

وهناك المصالح المشتركة التي تزيد العلاقة قوة.

أما المساحات المشتركة بين الإسلام والمسيحية واليهودية ففيها اتساع ملحوظ.

فهناك تراث قيمي مشترك لا يقدر بثمن؛ فإن الملاحظ للنصوص الإسلامية يجد كماً كبيراً من النقل عن عيسى عليه السلام وأمه الطاهرة وموسى عليه السلام؛ نقلاً يوجه الحياة وينقيها.

وقد تحدثت النصوص الإسلامية في مختلف المصادر عن أمور كثيرة منها:

أ - عظمة عيسى المتجلية يوم القيامة.
ب - زهده ومواعظه الكثيرة.
ح - أدعيته ومناجاته.
د - سيرته بين الناس، وفيها تذكر مكارم أخلاقه وخطبه وكلماته.
هـ - ما أوحى الله سبحانه إليه.
و - درر كلامه وحكمه.
ز - قبسات من الإنجيل(١).

تعامل الرسول الأكرم (مع المسيحيين:

من المسلم به أن رسول الله ﷺ كان يتعامل بمنطق الحوار البناء، واكتشاف المساحة المشتركة والتعاون في توسعتها، عبر طرح مختلف الآراء. وهذا بالضبط ما أراده القرآن الكريم حين قال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

ولم يكن يخرج عن هذا الخط مطلقاً، فكان يوصي قادته بمسألة الدعوة قبل أي شيء.

والمستفاد من القرآن الكريم أن لقاء الرسول ﷺ بنصارى نجران في المدينة كان مفصلاً ، وربما دام عدة أيام، وقد أكد الطبري في تفسيره أن أكثر من ثلاثين آية من سورة آل عمران تنظر إلى وقائع هذا اللقاء(٢). في حين أن ابن

(١) يراجع كتاب (المسيح في الروايات المشتركة بين الشيعة والسنة) بإشراف كاتب المقال.
(٢) جامع البيان للطبري ج٣ ص ٢٢٠ .

إسحاق يصل بها إلى أكثر من ثمانين آية من هذه السورة[1] وهذا يعني أن حواراً مفصلاً دام بين المسلمين والمسيحيين الذين ضم وفدهم أكثر من ستين شخصية.

ويستطيع المؤرخ المحقق أن يقطع أنه ﷺ لم يتعامل مع المسيحيين تعاملاً خشنا يؤدي إلى صراع ، وربما كان من أسباب ذلك أن المسيحيين كانوا دائماً ملتزمين بعهودهم ومواثيقهم التي عقدوها مع الرسول الكريم ﷺ.

وهكذا أطنبت النصوص في ذكر موسى عليه السلام، وذكره القرآن الكريم في مواضع كثيرة فكانت قصته أكثر القصص[2]، ولكن تعامل المسلمين مع اليهود يختلف عنه مع المسيحيين لأن اليهود لم يتقيدوا بالمعاهدات.

على أن هناك تلاقياً بين الأديان الإبراهيمية في مجالات كثيرة منها:

- التركيز على عبادة الله ومحاربة الظلم والطغيان.
- الإيمان بالفطرة الإنسانية المبدعة.
- الإيمان بمنظومة أخلاقية تكاد تكون واحدة.
- الإيمان بحقوق الإنسان.
- الإيمان بقيمة التشكيل العائلي.
- الإيمان بضرورة التكافل الاجتماعي.
- الإيمان بقيمة الحياء والعفة الاجتماعية.
- الإيمان بضرورة خدمة الحضارة الإنسانية.

(١) السيرة النبوية لابن اسحاق ج١ ص ٥٧٦ .
(٢) راجع كتابنا (نظرات في علوم القرآن) ص ٢٥٥ فما بعد.

ـ الإيمان بمنظومة من العبادات والأدعية والصلوات المزكية للنفس.
- الإيمان بمنظومة من الاطعمة والأشربة المحللة
- الإيمان بمنظومة من الطهارات والنجاسات

وغيرها كثير كثير.

وهناك مساهمات حضارية مشتركة. على أن المصلحة وهي في نفسها قيمة دينية تقتضي هذا التعايش.

إن التعاون في الحرب ضد الفقر والمرض والجهل، والعمل لنفي التعصب، والانهيار الأخلاقي، وإشباع الحاجات المعنوية ومقاومة المخططات الشيطانية لتقويض الكيان العائلي والتشكيك في القيم الدينية، ومقاومة الإرهاب بشتى أنواعه، ومنه الإرهاب الرسمي، ورفض أدعياء الدين الذين يخلقون الحروب لمصالحهم الشخصية والفئوية والحزبية، ويتسترون بالدين، ورفض الاستكبار والحروب المدمرة والاعتداء على الآخرين وكذلك رفض أساليب القتل الجماعي بالأسلحة المدمرة إلى ما هناك من مجالات وربما كان من أهمها محاربة المادية وملء الفراغ المعنوي والأخلاقي، وغيرها كلها مصالح تدعو الطرفين للتعاون البناء.

ولايفوتني في الختام أن أنوه بكتاب صدر مؤخراً لأستاذ أمريكي هو ريتشارد بوليت بعنوان (دفاعاً عن مقولة الحضارة الإسلامية المسيحية) طارحاً هذه المقولة في قبال مقولة (صدام الحضارات) مركزاً على المساهمات المشتركة بين الحضارتين في المسيرة البشرية العامة؛ موضحاً أن الفارق الزمني بين بدئهما، والنزاعات المستمرة بينهما لايشكلان مانعاً من تلاحمهما الحضاري، وحتى فارق التطور المادي بينهما ما بين ١٦٠٠ - ١٩٠٠م يتعادل

بتقدم العالم الإسلامي بشرياً بنسبة ٥٠٪ في قبال ٢٠٪ ليخلص إلى النتيجة التالية فيقول: «أما إذا نظرنا إليهما كونها وحدة واحدة ومن ضمن إطار تاريخي، فإن العالم الإسلامي المسيحي لديه ما يجمعه أكثر مما يفرقه - فماضي الغرب ومستقبله لايمكن فهمهما بشكل كامل دون تقدير العلاقة التوأمية التي ربطته بالإسلام طوال أربعة عشر قرناً. والملاحظة نفسها تنطبق على العالم الإسلامي.

إن مسألة الحضارة الإسلامية - المسيحية كونها مبدأ تنظيمياً هو بالنسبة إلى الفكر المعاصر مسألة متجذرة في الحقيقة التاريخية على مر هذه القرون. وقد يتمنى الواحد منا أن يرى مؤرخو الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية قيمة تعديل نظراتهم كي يأخذوا هذه الحقيقة بالحسبان... أن الحضارة الإسلامية المسيحية هي مفهوم نحتاجه بشدة إذا كنا سنحوّل يوماً تراجيدياً مشهوداً[١] إلى لحظة تاريخية للاستيعاب والتكامل الاجتماعي والديني»[٢].

ويقول عنه الأستاذ محمود حداد مترجمه مايلي: «ولم يتفق الجميع مع أطروحة هانتنغتن بل خرج كثير من المثقفين عن هذا الخط الفكري معلنين ضرورة حوار الديانات والحضارات وضرورة التعايش لا التقاتل في ما بينها إلا أن الكتاب... يقول: إن الإسلام والمسيحية شكل حضارة واحدة من الناحية الاجتماعية»[٣]. والكتاب رغم بعض النقاط التي نخالفه فيها جدير بالمطالعة.

(١) يقصد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.
(٢) الكتاب المذكور ص ٥٥ - ٥٦ .
(٣) نفس المصدر، ص ١٠ .